في أدب الاجتماع — ٣

# الجانب الاجتماعى فى الشعر الحديث

## شوقى ، حافظ ، مطران

بقلم أحمد عبد المجيد الغزالى

---

كتب إلى بعض المعنيين بدراسة الأدب الحديث ، يطلبون أن يتسع البحث فيشمل الجوانب الفنية الأخرى ، فى شعر شوقى وصاحبيه ، وهم يشفعون هـذا الطلب بمبررات لا تخلو من وجاهة ، فأحد الكاتبين يرى أن من الصعب حصر المعانى الاجتماعية ، التى بثها شاعر كشوقى ، فى قصائده ومقطوعاته ، والكاتب يريد لى الحيطة لأصدر فى حكمى على شوقى "الشاعر الاجتماعى" ، عن دقة واستقصاء ، ويؤكد لى — وأنا فى غنى عن توكيده — أن لشوقى "لفتات صريحة جريئة" الى المجتمع فى أمداحه ومراثيه ، وأنا أزيد علم الكاتب الأديب ، أن لشوقى "لفتات صريحة جريئة" إلى المجتمع ... حتى فى غزله ونسيبه — اذا سلمنا أن له غزلا ونسيبا ، ومستعد أن أهديه الى هذه اللفتات فى مجلة غير مجلة الشؤون الاجتماعية ، تتسع صفحاتها ، لهذا اللون من الكتابة . .

أقول مرة أخرى ، إنى لا أكتب دراسات أدبية فى هذه المجلة ، وإنما أحاول إبراز فكرة خاصة ، فى ناحية خاصة ، تنساق فى اتجاه التحرير ، الذى تؤثره هذه المجلة ، وتحرص عليه . إذن لن أكلف نفسى عنتا فى لم شتات هذه المعانى المبعثرة هنا وهناك ، التى تتناول المجتمع من قرب أو بعـد ، وتكفينى القصائد القلائل التى قالها هؤلاء الشعراء فى الاجتماع ، لإبراز هذه الفكرة ، لأصل منها إلى تصوير المثل العليا ، فى شعر القومية والاجتماع . وأعود إلى الكاتب الفاضل ، لأقول له : إن هذه اللفتات التى يلفتنى اليها ، لن تغير شيئا مما قلناه عن شوقى فى المقال السابق ، وشوقى بعد هذا كله شاعر فذ ، له مكانته وخطره فى تاريخ الأدب الحديث ، ولن ينقصه ظهور حافظ عليه فى هـذا المضمار ، فقد كان لكل من الشاعرين موقف من المجتمع ، حتمه الزمن وفرضـته الحياة ، ومن ذا الذى يستطيع أن يتفلت من حكم الزمن ، وتكاليف الحياة ؟!

وإن كانت ثمة ناحية يبدو لنا الفرق فيها هائلا ، بين حافظ وغيره من شعراء هذا الجيل ، فهى تلكم الناحية وحدها ، فحافظ شاعر جلى كثيرا من معارض الشعور فى الحياة الشعبية ، وسجل كثيرا من مظاهر القومية المصرية ، وبيئاتها الاجتماعية ، على تباين طبقاتها ، وشدة هذا التباين ، وإن أسباب عيشه ، وملابسات أيامه كما يقول العقاد " كانت أدعى الى توجيهه ، هذه الوجهة ، وأدنى الى إقامته فى هذا المقام".

و يظهر أن ظروف الحياة حقيقة هى التى تسيطر على المواهب والعبقريات ، وتوجهها حسب مقتضيات المجتمع ، ومطالب البيئة . فلو أن الأيام وضعت حافظا موضع شوقى ، وأحلت شوقيا مكان حافظ ، لانعكست الآية ، وجرى كل منهما الشوط الذى جراه صاحبه ولم يزد قيد أنملة — أريد بذلك أن أطمئن المشفقين على مكانة "أمير الشعراء" من شاعر النيل ، فما كان لحافظ أن يعيش بعيدا عن الشعب ، وهو يجوب شوارع القاهرة على رجليه فى ضحوة الصبح ، ويقف على ضفة نيلها فى روعة الأصيل ، ويعبث فى مقاهيها وأنديتها الليالى الساهرة الشاعرة . وما كان لشوقى أن ينأى عن القصر وهو شاعره ، شاعر الأمير ، تشغله أبهة الملك عن رغبة المجتمع ، ومظاهر النعمة عن أشباح البؤس والفاقة .

شاعر الأمـــير وما بالقـليـــل ذا اللقب

فهو يعتز بهذا اللقب ، ولن يستطيع أن يهمل حقه عليه ، وهو بذلك رضى البال مستريح الخاطر .

أما حافظ فكما يقول الدكتور طه " صديق الشعب كله ، صديق الفقراء والأغنياء ، وأوساط الناس ، تراه فى كل بيئة وتراه فى كل مكان ، خالط الناس جميعا فأصبح هو الناس جميعا ، وصور نفسه فى شعره فصور بها الناس جميعا " .

من أجل هـذا أجاد حافظ التعبير عن آمال الشعب وآلامه ، و برع فى ذلك إلى حد الرضا والإعجاب ، و جرؤ على مواجهة الشعب بحقيقة أمره ، غير هياب ولا وجل ، واستجاب لداعى القومية فى خفة واهتمام ، فأحبه الشعب ورضى أن يكون لسانه الناطق ، ورسوله الأمين . عاش حافظ يرقب الشعب عن كثب ، ويدفعه دفعا إلى الحياة الحرة الطليقة ، فيرغبه فى النهوض بمستواه ، ويبصره بالمثل العليا ، ويسخر منه ، إن استحق السخرية والزراية ، لا يصانع أو يداجى .

أمة قـــد فتّ فى ساعدهـا بغضهـا الأهل وحب الغربا
تعشق الألقـاب فى غير العلا وتفـــدّى بالنفوس الرتبـا
وهى والأحداث تستهدفهـا تعشق اللهو وتهـوى الطربا
لا تبـالى لعب القوم بهـا أم بهـا صرف الليـالى لعبا

وقريب من هذه المعانى التى كان يرسلها حافظ فى ثورة وعنف ، هذان البيتان :

أمور تمـر وعيش يكـــر ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات فـرار السليم من الأجرب

وهل تطلب من شاعر يتصدى للكلام فى القومية والاجتماع ، تصريحا أوضح وأصرح من هذا التصريح الجارح القاسى :

واذا سئلت عن الكنانة قل لهم     هى أمة تلهـو وشعب يلعب

فى هذا الاتجاه تقرأ أخصب ما قال حافظ وأمتعه، هذا الذى خص به المجتمع أيام انحلاله وتدهوره، فعالج أمراضه، وفاخر بماضيه وشهر بحاضره — لايخشى بطش الحاكم، ولا يرهب صولة المحتل، كل ذلك فى أيام كان حديث الناس فيها همسا، وخطو الناس فيها احتراسا كما يصور شوقى يترأب فى الأيام الغابرات .

يصيح حافظ بالمجتمع، ليغير أوضاعه المعكوسة، التى يحسن أن تستقيم، ويعدل نظمه القلقة التى يمكن أن تستقر :

لعمرك ما أرقت لغير مصر     وما لى دونهـا أمل يرام
ذكرت جلالهـا أيام كانت     تصول بهـا الفراعنة العظام
وأيام الرجال بهـا رجال     وأيام الزمان لهـا غلام
فأقلق مضجعى ما بات فيهـا     وباتت مصر فيه، فهل ألام؟

أخشى إن أنا مضيت فى القصيدة ألا أنتهى حتى تنتهى ، وقد وجهها حافظ إلى الأمير حسين كامل، رئيس مجلس الشورى والجمعية العمومية ، والقصيدة سجل حافل ينطق بآمال مصر ، و يفيض بآلامها ، وهى فى المحنة الدامية والبلاء الشديد :

أرى شمسا بمدرجة العوادى     تمخخ عظمه داء عقام
اذا ما مر بالبأساء عام     أطلَّ عليه بالبأساء عام
سرى داء التواكل فيه حتى     تخطف رزقه ذاك الزحام

أترى حافظ ينسى فلاح مصر وهو فى هذا المقام ، وكيف وهو ثروة الأمة وعتادها ؟

أبا الفــلاح إن الأمر فوضى     وجهل الشعب والفوضى لزام .
فأسـعدنا بنشر العلم واعلم     بأن النقص يعقبــه التمام
أجبنـا : هــل يراد بنـا وراء     فنقضى أم يراد بنـا أمام

ويلح حافظ على معانى الرثاء ، فلا يقف عنـد الفجيعة فى الزعيم الشاب ، يستوحيها ألوان الألم ، وأهوال المصاب ، فلا يزعم أن السماء تساقط كسفا ، ولا الأرض تمور مورا ، ولا النيل يشق الجيوب ، وإنمـا :

هنيئـا لهم فليـأمنوا كل صـائح     فقد أسكت الصوت الذى كان عاليا
ومات الذى أحيـا الشعور وساقه     إلى المجد فاستحيا النفوس البواليـا

* * *

يموت المـداوى للنفوس ولا يرى     لمـا فيــه من داء النفوس مداويا
وكنا نيامـا حينما كنت سـاهدا     فأسهرتنـا حزنا وأمسيت غافيـا

وهو إذا أراد أن يغلو فى معانى النكبة فى الزعيم الشاب ، لا يقول أكثر من أن مصطفى كاملا ، لم يكن فردا ، وإنما كان جيشا لجبا غازيا :

ثلاثون عاما بل ثلاثون درة        بجيد الليالى ساطعات زواهيا
ستشهد فى التاريخ أنك لم تكن        فتى مفردا بل كنت جيشا مغازيا

يخلص حافظ من معانى الرثاء ، إلى معانى الوطنية والاجتماع ، فى مرونة وحذر .
الزعيم الراحل، شاب فى زهوة العمر، وريعان الشباب، فلزاما أن يتأساه الشباب، ويسيروا على طريقته ، والأيام كفيلة أن تخلق من كل واحد منهم مصطفى كاملا ، إذا هم زاحموا الأيام ، وعركوا الحياة ، فى بسالة واعتداد ، لا تقفهم تلك السدود والحدود ، ولا تجرفهم تلك " الأمواج " العاتية الجبارة :

يا أيها النشء سيروا فى طريقته        وثابروا ، رضى الأعداء أو نقموا
فكلكم مصطفى لو سار سيرته        وكلكم كامل لو جازه السأم
قد كان لا وانيا يوما ولا وكلا        يستقبل الخطب بساما ويقتحم

نقول . . . حتى مواطن الرثاء كان حافظ حريصا على أن يزحمها بمعانى القومية والاجتماع ، وهو فى كلتا الناحيتين شاعر نسيج وحده ، لا يدانيه شاعر آخر ولا يجاريه .. وحافظ إذا فرغ للمجتمع ، وليس فى ذهنه غيره ، أتى بالعجب لأنه يرسل الشعر عن طبع دافق ، ووجدان مشبوب . . . وما أحسبنى قادرا على قول كل ما أريد أن أقوله عن حافظ "الشاعر الاجتماعى" حقا فى مقال واحد ، محدود الصفحات — ذلك لأنى أريد أن أرد بنماذج من شعر الرجل، على اللغط الذى يدور حول اسم حافظ، فى أندية الأدب ومجلاته هذه الأيام ، ماذا يريدون أن يقولوا ؟ ؟ أهان حافظ على الناس وهو الشاعر الذى شدا فى شعره الناس ؟ أرجو أن يمهل أشدهم غلوا ، واعتدادا بشاعريته ، فاذا وصل إلى ما وصل إليه حافظ، فليمت راضيا مرضيا . . . أقل ما يقال، فارقا بين حافظ وشعراء هذه الأيام، إنه مفهوم معقول ، شعره كصفحة الغدير السيال ، وليس أحاجى ولا ألغازا ، وأنا متشائم بمصير الشعر الحديث ، إذا ظل على هذا الأسلوب من الأداء، وتفاهة المعانى . لا يمكن أن ننتظر على يديه خيرا لهذا المجتمع ، الذى يجب أن تتعاون كل القوى المفكرة — وفى طليعتها الشعر — على الأخذ بساعده حتى يسير وتنتظم خطاه ، فى غير مشقة أو عناء .

لن ننكر أن الشعر المعاصر قرب من المجتمع عن طريق الغناء ، فتناول معانيه ولكن فى غير هوادة ولا رفق .

إذا نحن طالبنا الشاعر بالإفصاح عما يختلج فى ضميره ، فلا نطالب الشاعر الغنائى بأكثر من هذا . . . أريد أن أصل إلى أن شعراء الغناء عندنا لم يوفقوا كما ينبغى والذى

نرجوه لهم . بعد أن نقدم لهم المثل العليا فى شعر القومية والاجتماع ، أن يروضوا أنفسهم على نظم أمانى المجتمع ورغباته فى سهولة ويسر ، وبذلك يتأتى للشعر أن يذيع رسالة المجتمع ضامنا لها الخلود والبقاء ، وسأفصل القول فى علاقة الشعر الاجتماعى بالغناء فى فرصة أخرى .

وكيف يستطيع الشاعر أن يصل مع المغنى إلى خدمة المجتمع ورفع مستواه ، ثقافيا وخلقيا ، فيتجافى السامع عن هذه الرخاوة والميوعة التى تشيعها اللغة الدارجة فى لحن المغنى وإيقاعه . وفى طوق شعرائنا أن يستغلوا هذه الفترات الحرجة التى تمر بالعالم مرورا ثقيل الخطو ، شديد الوطأة ، والتى تسكن النفوس فيها إلى وسائل السلوى والتسرية ، وتخادع فى أعماقها هذه الأحاسيس المروعة المخيفة . . . أقول فى وسع شعرائنا أن يبادلوا المجتمع الرأى فى كل ما يشد أزره ، ويقوى بنيانه ، ويدعم ركنه ، وأن يعمدوا إلى تلوين ما يقولون بألوان متألقة زاهية ، لتقبل عليه النفوس فى شوق وارتياح ، فيستطيع المجتمع أن يتلمس الشجاعة الكامنة فى تجاليده ، لمواجهة ما يضمره الغد المجهول فى أطوائه وتضاعيفه . . . والنفوس فى مثل هذه الظروف الكريهة تقبل ما يلقى إليها سهلا سائغا من معانى الحياة ، النابعة من البيئة ، والصادرة عن الشعور الصحيح بالقومية الحقة . . . فليس إذن على شعرائنا أكثر من أن يكونوا سادة صرحاء مفهومين ، كما كان شعراؤنا الثلاثة خاصة حافظا الشاعر الاجتماعى الفرد الذى تشهد بذلك آياته فى القومية والاجتماع ما

أحمد عبد المجيد الغزالى

---